# انهيار بلاد الأندلس
# وموقف دول الإسلام واستانبول من ذلك

✍ بقلم: الأستاذ أحمد توفيق المدني

إن المأساة الجارحة التي تشغلنا اليوم، ليست هي مأساة سقوط بلاد الأندلس بل إن حقيقة المأساة، إنما هي تلك العوامل التي أدت إلى سقوط بلاد الأندلس وانهيار مدينة شامخة الذرى، كانت ساطعة النور، فخلفت بعدها الظلام الدامس والفراغ الرهيب.

إنني أحصر هذه العوامل الأساسية، مع محاولة الإيجاز والاختصار في أربع نقط، ودون إضاعة لوقت هو حقاً نفيس، ألج صميم الموضوع، فأقول:

إن العامل الأول من عوامل انهيار بلاد الأندلس، كان سلوك الأندلسيين أنفسهم، فالدولة الإسلامية الأخيرة، وهي مملكة بني الأحمر بغرناطة، كانت حسبما يرويه كل رجال التاريخ من عرب ومن أجانب، قوية برجالها، قوية بسلاحها، زاخرة بمقاتلين من أبطال صناديد، فيها من المدافع الضخمة، ومن البارود، ما كان يكفي لا للدفاع فقط من حدود البلاد وقلاعها، بل كان يكفي لاسترجاع الكثير مما أخذه العدو منها،

لكن الله قد أصابها مع تلك القوة، مع ذلك الحول، في بصيرتها ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

يقوم أحد كرام الباحثين من المغرب الأقصى هو الأستاذ عبد الكريم التواتي، ما نصه في الوقت الذي كانت فيه الإرادة الإسبانية تتجه نحو الوحدة، وتناسي الخلافات، وكانت الإرادة العربية على العكس من ذلك، وحتى في هذه الأوقات الحاسمة، لم يستطع أصحابها أن يتوحدوا ويجمعوا صفوفهم، وتلك كانت عادتهم منذ العهود الأولى التي كان الدين الإسلامي صاحب الكلمة النافذة في هذه البلاد وإنما صاحبتهم عنصريتهم القبلية، وما يتبع هذه العنصرية من تضارب في المصالح الشخصية التي لم يستطع العرب أن ينسوها حتى في أحلك الظروف، وقد رأينا أن العرب لم يتورعوا، بعد أن قسموا الأندلس العربية إلى إمارات وممالك متناحرة متخادلة، تولى أمورها ملوك أقزام، أن يثيروها حروباً شعواء ضد بعضهم بعض وأن يستعينوا في هذه الحروب بأعدائهم إلى أن يقول: واستمرت هذه الحروب الأهلية التي كانت تصيب الوحدة العربية الإسلامية في الصميم مخلفة جروحاً عميقة، وندوباً فظيعة في كل القلوب والنفوس حتى أصبحت مع مرور الأيام حروباً انتقامية تدور رحاها سجالاً بين مختلف الأمراء والقادة والإسبان في كل ذلك، يذكون نار هذه الحروب، ويؤجج لهيبها، باغراء زعيم على زعيم، ونصر فريق على فريق، حتى إذا حفرت أخاديد سحيقة بين الأخوة والأشقاء أخذوا ينزلون ضرباتهم المدمرة على الكل، وينالون من الجميع.

هذا ما أردت الإدلاء به من كلام باحث خبير عن أولئك الذين كانوا من صناديد الأبطال فآل بهم الخلاف والتطاحن الدموي الأخوي، إلى تسلم سيفهم لعدوهم، بكف جبان رعديد، لا والله لن يغفر لهم التاريخ ذنوبهم، ولا يجد أي باحث منصف سبيلاً للدفاع عن ذلك السلوك المعوج الأهوج، الذي أدى إلى ارتكاب تلك الجرائم النكرة.

انظروا وتأملوا، رفقائي وأبنائي.

بينما يوحد الإسبان صفوفهم، ويجهزون جيوشهم، وبينما يعلن الملك فرناند والملكة إيزابيلا، عزمهم على محق آخر دولة إسلامية ببلاد الأندلس، وبينما يعلن البابا في روما أن هذه الحرب ضد المسلمين إنما هي حرب مقدسة، وأن من قتل في معامعها مات شهيداً، وبينما يفرض البابا على المسيحيين كافة ضريبة، الصليبية، من أجل تحطيم المسلمين في بلاد الأندلس فحسب بل في عقر ديارهم بالمغرب العربي، نرى العلامة المقري الجزائري يقول عن الأندلس يومئذ: ـ وكان السلطان أبو الحسن، قد استرسل في الملذات، وركن إلى الراحات وأضاع الأجناد، وأسند الأمر إلى بعض وزرائه واحتجب عن الناس، ورفض الجهاد، والنظر في الملك، وكثرت المظالم والمغارم، فأنكر الخاصة والعامة منه ذلك، وكان أيضاً قد قتل كبار القواد.

نعم، قد ثار عليه أخوه محمد بن سعد، الملقب بالزغل؛ أي: الفتى النبيل المقدام وانتصب ملكاً بمالقة، وهكذا انقسمت

مملكة غرناطة إلى قسمين، أمام العدو، وكانت تشمل يومئذ ثلاثين مصراً، وثمانين مدينة صغيرة وعدداً لا يحصى من الأبراج والحصون والدساكر، وكان عدد سكانها يقدر بأربعة ملايين نسمة.

لكن انقسام ملكين، لمملكة صغيرة، أمام عدو عظيم، لم يكن كافياً فازدادت المصيبة هولاً تدخل عنصر جديد في الموضوع، واقتسم ملوك ثلاثة، يحارب بعضهم بعضاً، تلك الرقعة التي كانت آخر أمل للمسلمين بديار الأندلس.

كان الملك أبو الحسن قد أصطفى لنفسه حظية إسبانية، ورزق منها بأولاد إلى جانب ولديه من زوجته الكريمة، عائشة الحرة وهي ابنة عمه، فكان كبير أولاده من زوجته عائشة هو أبو عبد الله محمد، وكان كبير أولاده من الحظية الإسبانية، ثريا، هو يحيى وتعلقت همة هذا السليطن بإسناد ولاية العهد، ليحيى ابن الإسبانية فانقسمت نفس مدينة غرناطة وهي تحت الخطر الشديد إلى قسمين متعاديين.

كل قسم منهما يؤيد أحد الولدين، وتفاقم الأمر، وادلهم الخطب، إذ بينما أبو الحسن والزغل يتقاتلان وهما أخوان، تقع الفتنة الدهماء بين ابنتي الملك الحسن، وتنقسم نفس المدينة العاصمة إلى شقين متعاديين متقاتلين. كان هناك بطل يسجل التاريخ اسمه في كتاب الخالدين، هو القائد، علي العطار، لم تأخذه العزة بالإثم وكان يجمع بين المسلمين في حروبهم ضد النصارى، فيقذف في قلوب هؤلاء الرعب ويثخن فيهم، ويسمو

على أن يجعل بطولته تحت إمرة ملك خاص، أو أمير خاص، فهو قائد أندلسي مسلم يقاتل دفاعاً عن وطنه، ويستعد كل يوم للموت فداء دينه ولعلكم تعجبون إذا ما قلت لكم: إن ذلك البطل الذي تقدسه مدينة غرناطة المسيحية إلى اليوم وتنشئ المنشأت العامة باسمه، ويحفظ سيفه ضمن إطار من البلور في المتحف الكبير، كان قد ناهز التسعين من عمره، وهو يصول في ميادين القتال ويجول على رأس كماة المجاهدين إلى أن استشهد، والسيف بيمينه يقطر دماً في معركة حامية الأدوار. كان يدعو الناس للجهاد، ومصادمة العدو متحدين متضامنين وكان له إقبال من أمثاله، يعملون على شاكلته فمملكة غرناطة كانت مليئة بصناديد لا يهابون الموت، الرجل منهم كمثل عشرة من أعدائه لكن ماذا يكون مآل الجسم الصحيح، إذا كانت تعلوه هامة قد مكنها الداء العياء.

تفاقم أمر الخلافة فإذا بغرناطة الأبية تخلع سلطان الملك، أبي الحسن، وتبايع ابنه أبا عبد الله محمد ملكاً. سفر الملك من وجه ابنه إلى إحدى المدن الساحلية، فيعلن أن ابنه قد شق عصا الطاعة، وأنه هو الملك الشرعي، الواجب الطاعة ثم ما لبث أن عاد على رأس جيشه، فانتصب ملكاً بقسم من مدينة غرناطة، بينما كان قسمها الأخير، قسم العمال والطبقة الوسطى وهو البيازين، محافظاً على ولائه بابنه الذي بايعه، فأصبحت مملكة الأندلس الصغيرة، وهي أمام خطر السقوط والتلاشي، ذات ثلاثة ملوك، الملك أبي الحسن وشقيقه الملك الزغل، وابنه الملك أبي عبد الله محمد.

يقول شكيب أرسلان في كتابه من تاريخ الأندلس: ولما وصل أبو عبد الله إلى الحاضرة أي غرناطة ثار به والده وأصحاب والده من جهة، انتصرت له أمه ومن إليها من جهة أخرى، فكان هناك ذلك الوقت الضيق، مشهد الحماقة الأعظم، وجرى من الأمور منكرة ما ليس في كتاب، وامتلأت الأسواق بالمقاتلين بعضهم ينادي باسم أبي عبد الله، وبعضهم ينادي باسم والده أبي الحسن، وكان أكثر ميل العامة إلى أبي عبد الله، فسالت الدماء، وأصبحت حمراء غرناطة اسماً على مسمى.

وصل الحال بهؤلاء المناكيد، أن أبا عبد الله الزغل، أصاب النصارى في إحدى غزواته بكارثة مؤلمة في ناحية مما يليه من البلاد، وأثخن فيهم، فإذا بالملك المشؤوم، أبي عبد الله محمد يبعث بالرسالة إلى ملك الإسبان يعتذر فيها عماً فعل عمه وأقول ما معناه: لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا في هاتيك الأثناء، تآلبت المسيحية كلها ضد المسلمين، وهم كما رأينا، وجند فرديناند وإزبيلا جيشاً من اثني عشر فارساً، وأربعين ألف من المشاة، وستة آلاف من ممهدي الطرق أمام الجيش، وكان على رأس المتطوعين الفرنسيين الذين معه القائد كاسطون إليوني وكان على رأس المتطوعين الإنجليز اللورد سكالس وكان المتطوعين الألمانيون يشتغلون بالمدافع ويحسنون توجيه ضرباتها.

لقد كان الأندلسيون بما لديهم من سلاح وعتاد ومدافع ورجال يستطيعون الثبات للنصر، وكانت فيهم روح قتالية،

سجلها لهم التاريخ ربما لم تكن موجودة يومئذ في غيرهم، إنما هم كانوا ولسوء الحظ يتقاتلون داخلياً فيما بينهم أكثر مما كانوا يوجهون الضربات للعدو والمهدد المشترك، وكنت أستطيع لولا ضيق الوقت، ومرارة الحديث، أن استمر الساعات الطويلة على ذكر هذه المأساة العنيفة الفظيعة، أفتعجبون سادتي، وأبنائي، كيف سقطت مملكة غرناطة شهيدة بين أيدي جلادها، على ملك شقي مأفون بلغت به الخسة والندالة أنه بعث يهنئ الملك فرديناند لاحتلال مدينة مالقة وبتحويل مسجدها الأعظم إلى كنيسة، ومنذ ذلك إلى الآن مدينة مالقة كانت معقلاً لعمه وعدوه أبي عبد الله الزغل.

تالله لو وجد الأندلسيون رجلاً قائداً، من ذوي العزائم الصادقة، يجمع كلمتهم، ويلمُّ شعثهم ويبعد عنهم ملوك السوء، وما حولهم من بطانة موبوءة، لما كان لهم ذلك المآل الحزين.

كان لها رجل واحد، كان لها يوسف بن تاشفين، لكنه كان رجلاً قد جاء قبل زمانه، فلما جاء زمانه لم يجد برجل مثله.

هكذا سقطت مملكة غرناطة؛ لأنها كانت تحفر بيدها قبرها، وتهيء بنفسها أسباب سقوطها، وإذا كان بها جماعة غفيرة من المغاوير، فقد كان بها أيضاً جماعة أشربوا في قلوبهم دعوة الهزيمة ونخر سوسهم عظامهم، ألم يكن من الأندلسيين من يقول، منذ الوهلة الأولى:

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس ... فما المقام بها إلا من الغلط
العقد ينثر من أطرافه وأرى ... عقد الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه؟ ... كيف الحياة مع الحيات في سفط؟

وألم يقل فيها لسان الدين بن الخطيب، على علمه وأدبه وفضله، في وصيته المحفوظة لابنائه: ومن رزق منكم مالاً بهذا الوطن القلق المهاد، الذي لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع في العقاد فيصبح بذلك عرضة للمذلة والاحتقار وساعياً لنفسه أن تغلب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار أمام النوب الثقال.

العامل الثاني من عوامل انهيار مملكة الأندلس ومأساة أهلها، هو العامل المغربي، هو سلوك أهل الشمال الأفريقي، نحو ذلك القطر العربي الإسلامي، المنكوب بأهله قبل أن يكون منكوباً بأعدائه، فالذي نعلمه، مما سجله التاريخ، هو أن المغرب العربي والمغرب الأقصى بالذات كانت لها اليد الطولى والقدح المعلى في إدخال الإسلام وجيوش المسلمين إلى الأندلس، فعنه اجتاز طارق بن زياد مرسى نصبر الضيق إلى جبل طارق وتلبية لدعوة الإنقاذ التي تلقاها من الإسبانيين المستضعفين في الأرض والجند الإسلامي المغربي هو الجند الذي وطد مملكة الإسلام هنالك، وجعلها تسود وتمتد طيلة ثمان مئة سنة ولقد كانت مملكة الأندلس تزداد قوة، أو تزداد ضعفاً، على مقدار ما كانت عليه ممالك المسلمين ببلاد المغرب العربي من قوة ومنعة، أو من ضعف وانهيار.

وشاء الله أن تمتد يد الخراب شيئاً فشيئاً إلى بلاد الأندلس رغماً عن علو كعبها في العلوم ورقة شعرها، وسمو فلسفتها، بواسطة ما اخترعته، ومنذ نشأتها تقريباً، من شقاق قبلي وتناحر سياسي، وحروب وفتن أهلية فتاكة حول عروش واهية، ودول هزيلة، وكنا نرى القوم - على صفحات التاريخ - يبذلون فيها نفوسهم ويجودون فيها بنفيسهم، ويزدادون فيما بينهم قسوة وشراسة، حتى أنه ليصدق عليهم قول شاعر صقلية الشهيدة، الفحل، عبد الجبار بن حمديس.

أحين تغانى أهلها طوع فتنة  يضرم فيها ناره كل حاطب
ولم ترحم الأرحام منهم أقارب  تروي سيوفاً من دماء الأقارب

عندئذ كان الإسبان يغتنمون الفرص، وهم أهل حزم وفطنة، وصلابة، وينهالون على البلاد يأكلونها من وسطها ومن أطرافها، فتعلو أصوات الاستصراخ والدعوة للجهاد، من العدوة القصوى، وما كان أسرع بلاد المغرب العربي، والمغرب الأقصى بالذات، بالنجدة الفعالة في حماس واندفاع جريء، ومن ذا الذي ينسى جهاد أمير المرابطين يوسف بن تاشفين وجهاد تلك الجموع الفائزة الدافقة، وكيف تمكنوا من إصابة الأعداء في الصميم.

وكسروهم شر كسرة في وقعة الزلاقة الشهيرة سنة 481هـ (1088م)، ثم توالت أمواج الجهاد منطلقة من المغرب نحو الأندلس، في ثلاث دفعات قضت في نفس الوقت على آمال الأعداء وعلى ملوك طوائف تربعوا فوق العروش باسم الإسلام،

فإذا بهم وبواسطة تلك العروش، يحاربون الله ورسوله، عندما يحزون رقاب المسلمين، ويهرقون دماء عزيزة، اشتراها الله من المسلمين لتكون وقاية لبلاد الإسلام.

ثم من ذا الذي ينسى إسراع أمير المؤمنين الموحد، عبد المؤمن بن علي، ببسط سلطانه الرحيم العادل على بلاد الأندلس، منذ سنة 551هـ (1156م) فكانت أيام الموحدين بتلك الأصقاع، غرراً في جبين الدهر، توجتها معركة الأراك سنة 591هـ (1194م)، وما زالوا يوحدون ويجمعون الكلمة، إلى أن انحلت عصبيتهم، وذاقوا مرارة الهزيمة سنة 609هـ (1212م)، في موقعة العقاب الشهيرة التي هلك فيها معظم الجيش الإسلامي، ولم يقم للمسلمين بعدها أمر يذكر، وانهارت دولة الموحدين الضخمة، الجامعة فخلفتها بتونس دولة بني حفص، وخلفتها بالمغرب الأوسط دولة بني زيان، وخلفتها بالمغرب الأقصى دولة بني برين.

ثم أخذ منذ تلك الواقعة، شأن الإسبان في النمو والقوة، والاتحاد، وشأن الأندلسيين في الانهيار، والضعف والخلاف الذريع، وذلك رغماً من وقائع باهرة وبعض انتصارات مشهودة واشتغلت دولة بني مرين - على الأغلب - بمحاربة الجار المسلم في مملكة بني زيان عن إمداد إخوانهم بالأندلس إلا بالشيء اليسير في مناسبات عدة.

أما مملكة بني حفص التونسية، فقد أمدت أيضاً بلاد الأندلس أول الأمر، إنما دخلها داء الشقاق والانحلال هي

أيضاً، فضعف الطالب والمطلوب، فنحن نرى من هذا أن الأمور في بلاد الأندلس قد انقلبت ظهراً على عقب، بانحلال دول المغرب العربي، وباشتغال عروشها بمحاربات آثمة، بل أجرأ فيما بينها، واشتد بأس الإسبان خلال ذلك إلى أن طغى ومحى العامل الثالث في انهيار دولة الإسلام بالأندلس إلى جانب ما سلف هو ما يمكن أن نسميه بانهيار العالم الإسلامي، في ذلك الوقت بالذات، فكيف كانت حالة العالم الإسلامي حول البحر المتوسط خلال تلك الأيام الحالكة السواد؟

لن يكون للعرب يؤمئذ حكم، ولا دولة، إلا حكم تلك الدول الواهية بالمغرب العربي، كانت مصر وكانت الشام، هما قلب العروبة النابض الخفاق، كانتا خاضعتين لحكم دولة المماليك الأتراك الذين أشار إليهم صلاح الدين الأيوبي فيما مضى.

اثنى عشر ألفاً من أجل مقارعة الحملة الصليبية، فأسسوا بعد الأيوبيين ملكاً قوياً وذاع صيتهم إلى أن بلغت دولتهم الهرم، فلم تستطع المحافظة على أقطارها، فضلاً عن إمداد أقطار أخرى مهددة بالزوال والانقراض، إنني لا أنكر فضل وحزم وشهامة السلاطين المماليك، الذين أطنب ابن خلدون في ذكر محاسنهم، ولا ما كان لهم من القدح المعلى في إنقاذ الإسلام وبلاد الإسلام بالشرق، كلنا يذكر بإجلال وإكبار الظاهر بيبرس، وهو يفتت بين يديه الجسارتين معاقل الصليبيين على سواحل الشام، والسلطان قطز، وهو يشهر الموجة المغولية

المخربة سنة 658هـ الموافق 1260م بعين جالوت، تحت صرخة، وا إسلاماه، والسلطانة شجرة الدر، وهي تقهر الصليبية الفرنسية على شاطئ النيل، وتضع ملك فرنسا، سان لوي، أسيراً بدار ابن لقمان بمدينة المنصورة، إلا أن تلك المملكة آلت في آخر أمرها للسلطان قانصوه الغوري، الذي كان يقاوم ويقارع عوامل الانحلال والتفكك، ويمد يد الإعانة لملوك المسلمين الذين كان الاستعمار البرتغالي يرديهم بواسطة أسطوله بالبحر الأحمر إلى أن مات مقاتلاً والدم يقطر من سيفه وهو في الثمانين من عمره، فدولة المماليك كانت أعجز من أن تمد يد الإعانة إلى مسلمي الأندلس.

أما العراق، فكان متغيباً عن الركب كان محكوماً بغير أهله منذ أمد بعيد، كان تحت حكم الفرس الذين يرون أن محاربة أهل السنّة من المسلمين، أوجب عليهم، وهم شيعة متغالون من الاشتراك في معركة إسلامية عامة، وإنقاذ بلاد الإسلام، حيث كان الإسلام، فالعالم الإسلامي لم يكتف يومئذ بصفة قتالية نضالية، هو عالم الإسلام كما أراده الله، حين يقول للمسلمين: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ أو حين يقول: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾.

أما العامل الرابع، سادتي وأبنائي، بعد الدولة العثمانية يومئذ عن مواطن الكفاح في بلاد الأندلس، فقد كانت الدولة العثمانية الناشئة سنة 1093م قد أخذت في النمو والارتفاع وكانت تتجه في فتوحاتها صوب الغرب الأوروبي، حتى تجعل

من البحر المتوسط بحيرة إسلامية، إنما هي كانت ذلك الوقت، تحارب من الشرق إلى الغرب: شاه إيران الشيعي، وروسيا، ودول البلقان، والمجر، والنمسا، ولو أنها غفلت طرفة عين من ثغرة واحدة من تلك الثغرات الممتدة على مسافة تزيد عن العشرين ألف كيلو متر لنفذ الأعداء من قبلها ولحطموها، خاصة أنها كانت تحاصر من قبلها مدينة القسطنطينية التي تهفو إليها قلوب النصرانية جمعاء.

على أن الدولة العثمانية، وهي في حالتها تلك، قد بلغها صراخ واستنجاد أهل الأندلس، وكانت على خلاف كبير مع دولة المماليك بمصر والشام، الذين تعصبوا لإيران خوفاً على ملكهم من أن ينهار تفاهمت مع السلطان قانصوه الغوري، وعقدت معه هدنة، كما يؤكد المؤرخ التركي الكبير الوزير ضياء باشا، في تاريخه عن بلاد الأندلس، استعدت تجهز جيشاً وأسطولاً، لإمداد المسلمين، والعثمانيون كانوا حسب كلمة أخي وصديقي الكبير عثمان الكعاك جندرمة الإسلام، لكن الإسبان وكانت المسيحية كلها إلى جانبهم، قد أخذوا حذرهم وتلافوا الأمر قبل وقوعه، فجهزوا أسطولاً ضخماً يعترضون به الأسطول العثماني من جهة، وبادروا باحتلال المدن الساحلية الأندلسية التي يمكن أن يصلها المدد العثماني من جهة أخرى.

يومئذ عزم العثمانيون على سلوك خطة جديدة ذات شقين، لانقاذ مسلمي الأندلس، ولإرجاع مملكتهم، وكان العثمانيون الذين تمكنوا من الاستقرار في مدينة إستامبول، يقفون على

سواحل بحر الأدرياتيك الشرقية، فالشق الأول من خطتهم، كانت تقتضي الوصول بأقرب سرعة إلى حدود إسبانيا الشمالية، وليس بينها وبينهم من حائل إلا البلاد الطليانية، ومحاربة الإسبان في الشمال، فصد تخفيف الضغط على المسلمين في الجنوب، وكانت فرنسا التي أردتها إسبانيا، وأذلتها، وأسرت ملكها تسهل على العثمانيين ذلك الهدف، وذلك بمهاجمة إيطاليا من ناحية الغرب، بينما يهاجمها العثمانيون بلوغ من الجنوب الشرقي، وفعلاً قد أنزل خير الدين باشا جنده بميناء أوتونتة الإيطالي، وأخذ ينتظر الهجوم الفرنسي لكي يخضع إيطاليا ويصل إلى الحدود الإسبانية، فيتغير وجه التاريخ، لكن فرنسا احجمت عن ذلك العمل في آخر ساعة، خوفاً من ثورة الرأي العام المسيحي.

أما الشق الثاني من الخطة العثمانية، فهو اختراق كامل البلاد العربية والوصول جنوباً إلى ميادين المعركة ضد الإسبان، وهكذا تمكن سليم القاطع من دحر المماليك، والاستقرار ببلاد الشام وبمصر، اجتاز طرابلس وبعث بأسطول من بحارته الأشداء، تحت قيادة البطلين عروج وخير الدين لإنقاذ مسلمي الأندلس والاتجاه بهم إلى أرض المغرب العربي، لا بصفتهم لاجئين، إنما ليكونوا هنالك مستعدين لخوض معركة الإنقاذ.

وتطورت الحوادث بسرعة، وكان ما كان مما نعرفه جميعاً، من الاحتلال الإسباني لكل الساحل الجزائري، من عنابة لمرسى هنين، وكان استنجاد الجزائريين بالأسطول

العثماني، ثم تحرير المدن الساحلية الجزائرية، ثم إقامة دعائم الدولة العثمانية الجزائرية، وهكذا أصبحت دولة الخلافة تقف أمام الإسبانيين وجهاً لوجه، لا أمام قلعة وهران العظيمة فحسب بل أمام الساحل الإسباني الجنوبي، بلاد الأندلس، حيث كان نحو المليونين من المسلمين يحتلون المعاقل والسهول بين جبال البشرات.

تأسست الدولة الجزائرية واكتمل بناؤها وثم توحيدها بعد خمسين سنة ودمرت شر مدمر كل هجوم إسباني عليها، مما أكسبها سمعة عالية ومكانة رفيعة في كل بلاد العالم الإسلامي وتولى أمرها البطل المغوار، قلش علي، فأخذ بأمر من السلطان، كما يؤكد ضياء باشا الآنف الذكر يدبر طريقة لإعانة ثورة المسلمين بالبشرات وإعادة ملكهم لهم.

عيّن الأندلسيون باتفاق سري مع قلش علي باشا يوم غرة نوفمبر 1568م، لإعلان الثورة العارمة وجهز الباشا الجزائري جيشاً ضخماً قوامه 14,000 من رماة البنادق يشد أزرهم ستون ألفاً من المجاهدين الجزائريين، مهمته استرجاع وهران، والاندفاع بكل قواهم نحو الساحل الإسباني، هذا فضلاً عن أربعين سفينة جزائرية عثمانية كانت تحمل الرجال والسلاح وقفت في اليوم المعين، يوم غرة نوفمبر أمام مرسى المرية، حيث كانت تستعد لإنزال ما في جوفها من رجال وأثقال، لكن إرادة الله حالت دون ذلك، فإن أحد رجال الثورة الأندلسية قد انكشف أمره، فعلم الإسبان سرّ المؤامرة واستعدّ لها، ولم يجد

الأسطول الجزائري كما كان يرجو رجالاً يتسلّمون السلاح، ويتقبّلون المقاتلين، وهكذا خسر الجزائريون فرصة المبادأة، وفي شهر يناير من السنة الموالية 1569م، أعلنت الثورة العامة، فشملت كل جبال البشرات، وكان أسطول جزائري عثماني يشمل بثمان وثلاثين سفينة حربية معمرة رجالاً وسلاحاً يحاول إنزال قواته في أماكن متفق عليها من قبل، لكن الإسبانيين كانوا مستعدين في كل مكان على الساحل لصد تلك المحاولة الجريئة، فأصبح الاسطول الضخم يتجول حول الساحل بغية إيجاد مكان لإنزال الرجال والسلاح، وفاجأته زوابع وأعاصير فصل الشتاء الشهيرة فأهلكت منه ثلاثين سفينة، ذهبت لقاع البحر بما عليها من رجال وأثقال، وما تمكنت من إنزال ما عليها إلا السفن الست الباقية.

لكن عزيمة الجزائريين العثمانيين لم تهن أمام هذه الكارثة، ففي السنة الموالية خلال شهر أكتوبر تمكن قلش علي من إنزال أربعة آلاف رجل من رماة البنادق المركزة من نوع رجل (اركيبويت) على الساحل الأندلسي، مع عدد من أبطال الحرب المجربين لكي يتولوا القيادة، واستمرت الحرب قاسية شديدة بين الثائرين الأندلسيين والجزائريين من جهة، وبين الجند المس يحيى الإسباني من جهة أخرى، وبعث قلش باشا في العام موالى عدداً آخر للثائرين وأعلن عزمه على السفر بنفسه لتولي قيادة المعركة الإسلامية في إسبانيا، لكن أساطيل المسيحية كلها قد تجمعت في البحر المتوسط يومئذ لمهاجمة الأسطول

العثماني، وتدميره فاضطر قلش باشا تحت إلحاح سلطان استامبول إلى البقاء على رأس ولايته المجادة ليشارك في المهمة العظمى واستمرت المعارك، قاسية، رهيبة تولى كبر المأسي فيها لدون يوحنا الأستيري الإبن الغير الشرغي للملك فكان سفاحاً فظيعاً يتلذذ بذبح النساء والأطفال بين يديه، ويحرق المزروعات والقرى حتى أصبحت البلاد خراباً وحطاماً، ثم قاد هذا السفاح نفسه سنة 1571م الأسطول المس يحيى الصليبي الذي تمكنت إسبانيا والبابارية من جمعه، وكان يشمل 300 سفينة يعلوها ثمانون ألفاً من الرجال المقاتلين فالتقوا مع الأسطول العثماني في مياه ليبانت، على سواحل اليونان، وكان مؤلفاً من 250 سفينة، وبعد أعمال بطولة غريبة شارك فيها قلش علي بنفسه على رأس عمارة جزائرية دارت الدائرة على العثمانيين، فغرقت من سفنهم 54 سفينة، من بينها 30 سفينة جزائرية وكانت خسائر المسلمين فادحة، ومن جملة أسباب هذه المعركة البحرية الرهيبة إقدام العثمانيين على إعانة أهل الأندلس كما رأينا.

أخفقت الثورة في الأندلس، ومات زعيمها البطل محمد بن أبوه، وتلاشت آمال المسلمين وضاعت ويا للأسف بلاد الأندلس نهائياً، كما انتهت ويا للأسف أيضاً ثلاثة أرباع الساعة المخصصة لكل حديث، بعد أن أوجزنا واختصرنا- فإن لم يكن وابل فطل. انتهى.